المحاضرة الثالثة:

تطور اللغة :

اللغة كغيرها من الظواهر الاجتماعية عرضة للتطور في عناصرها المختلفة و قواعدها ، ومضامينها، ودلالاتها، حيث توجد علاقة جدلية بين اللغة والنشاط الاجتماعي والإنساني، وقد سجل تاريخ اللغة العربية أن كل حقبة من الزمان شهدت تغيرات في الأساليب و التعابير المستعملة، يتقبلها الجمهور ويمارسها ، فلا يلبث الكثير منها أن يتصبح شائع الاستعمال، وتجرى به الأقلام والألسنة، دون حرج أو معارضة، إضافة إلى المصطلحات والألفاظ التي تقرها مجامع اللغة العربية ثم إن التطور في اللفظ ضرورة فاللغة كائن حي، لأنها تحيا على السنة التكلمين بها، ولذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن، كما يتطور الكائن الحي، ويتغير، وهي أيضا تخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته ونموه وتطوره، وهي لذلك عرضة للتطور في مختلف عناصرها إلا أن هذا التطور لا يجرى تبعا للأهواء والمصادفات، أو وفقا لإرادة الأفراد ، وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة مطردة

ويرجع علماء اللغة التطور الذي لحق بها إلى مجموعة من العوامل العوامل الاجتماعية والتي تتمثل في حضارة الأمة، ونظمها، وعاداتها وتقاليدها وعقائدها ومظاهر نشاطها العملي والعقلي، وثقافتها العامة، واتجاهاتها الفكرية، وهناك عامل تأثر اللغة بلغات أخرى، وعوامل أدبية تتمثل فيما تنتجه قدائح الناطقين باللغة، وما تبذله معاهد التعليم، والمجامع اللغوية، وما إليها في سبيل حمايتها والارتقاء بها ، وكذلك انتقال اللغة من السلف إلى الخلف، ثم هناك العوامل الطبيعية التي تتجلى في الظواهر الجغرافية، والفسيولوجية، وأخيرة عوامل لغوية ترجع إلى اللغة نفسها، وطبيعة أصواتها وقواعدها ، ومتنها، فعناصر اللغة

نفسها قد تنطوي على بعض نواح تؤثر في تطورها. وبالنظر إلى تلك العوامل يتضح أن اللغة العربية شأنها شأن الظواهر الاجتماعية عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها، وأن تطورها هذا لا يجرى وفق الأهواء، وإنما يخضع لقوانين جبرية، مطردة النتائج واضحة

المعالم. ثم إن أهم العوامل التي تؤثر في تطور اللغة ترجع إلى الوشائج التي تربطها بحياة المجتمع، وشؤون الحياة الجمعية، أي ترجع إلى ظواهر اجتماعية خالصة، كما أن بعض العوامل التي تؤثر في هذا التطور ترجع إلى أمور غير اجتماعية كالبيئة الجغرافية، أو اختلاف الشعوب في خواصها الجسدية الوراثية واللغة العربية تتميز بأنها تشتمل على عناصر قديمة جدا من اللغات السامية الأصلية، كما تشتمل على عناصر أخرى تدل على أنها صيغ مرت عليها تقلبات كثيرة وتغيرات شتى، واللغة العربية التي وصلت إلينا هي لغة أهل الحجاز الذين كانوا أهل تجارة وسفر، فضلا عما كان يجتمع حول الكعبة من الأمم المختلفة، وكل ذلك دعا إلى ارتقائها ، ثم كانت الفتوحات العربية بعد الإسلام، حيث أدت إلى احتكاك العرب وامتزاجهم بكثير من الشعوب التي لم يتصلوا بها من قبل ، ونجم عن ذلك أن نشأت ظواهر حضارية لم تكن للعرب معرفة بها من قبل ، فانتقل من جراء ذلك إلى اللغة العربية عدد كبير من مفردات اللغة الفارسية والسريانية، واليونانية، والتركية، والقبطية. على أنه من المهم في هذا السياق الإشارة إلى أن اللغة العربية كما تسرب إليها من اللغات الأخرى، فهي أيضا تسربت إلى تلك اللغات ؛ والدليل على ذلك أن اللغات التركية والانجليزية والفرنسية ، فيها الكثير من الكلمات العربية

وتجدر الإشارة إلى أن تطور الحياة في المجتمعات العربية وتداخلها مع المجتمعات الأخرى فتح الباب أمام وجود (الدخيل) في العربية الفصي والذي صار يعرف ويسمى مقرونا بالأعجمي، والمقرب، والمولد ، وتسمى د. حكمت كشلي هذه الظاهرة بالاقتراض اللغوي وترى أنه أمر طبيعي في عالم اللغات، وقد ذهب اللغويون إلى الاعتراف بما في القرآن الكريم من أعجمي، وكان على رأسهم ابن عباس الذي نقل عنه أن ألفاظا مثل "سجيل" و"المشكاة" وغيرها جاءت في القرآن بغير لسان العرب، وربما أمكن القول إن الدخيل، ومن خلفه المعرب بعد اليوم أحد أهم وجوه التطور الذي يصيب اللغات ، وتحذر د. حكمت كشلى من أن مسألة اعتماد المصطلح المعرب وغير العرب المتدفق من اللغات الأخرى وسيلة لإغناء اللغة العربية، ربما حمل في طياته خطر يهدد حياة اللغة نفسها، ويؤدي إلى

اندثار وجهها الأصيل، ومن هنا كانت فكرة إنشاء المجامع اللغوية التي استهدفت الحفاظ على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ومجاراة اللغات الحية في الاتساع والتطور.

وتتميز اللغة العربية عن غيرها من اللغات بأن أكثر ألفاظها مأخوذة بالاشتقاق اللفظي أو المعنوى، بحيث أصبحت تضاهي غيرها من اللغات من حيث الاتساع، على كونها أقل اللغات أوضاعا إلا أنها أكثرها صيغة و أبنية، وهو السر في قبولها هذا الاتساع العجيب فضلا عما فيها من تشعب طرق المجاز.